Rhetoric of Argumentation In Poetic Discourse between Imagination and Circulation

Received: 18/03/2025; **Accepted:** 01/04/2026

***صلاح الدين مبارك حدّاد**

جامعة محمد الصدّيق بن يحي/ جيجل (الجزائر)

بلاغة الحجاج في الخطاب الشعري بين التخييل والتداول

ملخص

نحاول في هذه الدراسة أن نقارب قضية لسانية نقدية محورية ترتبط أساسا بشعرية الخطاب من منظور حجاجي، ذلك أن الخطاب الشعري وإن بدا تشكيلا جماليا صرفا من أبنية تعبيرية بالغة الكثافة التصويرية، فهو لا يخلو مع ذلك من بنيات حجاجية يحّركها في السياق الشعري مبدأ التبليغ الذي يقترن على سبيل التلازم بالتعبير الشعري المؤثر في المتلقي.

الكلمات المفتاحية:
بلاغة؛
حجاج؛
خطاب شعري؛
تخييل؛
تداول.

Abstract

In this study, we attempt to address an essential and critical linguistic question, fundamentally linked to the poetics of discourse, from an argumentative perspective. Indeed, although poetic discourse appears as a purely aesthetic formation of expressive structures of great pictorial density, it is not devoid of argumentative structures that are animated in the poetic context by the principle of communication, which is linked by association to the poetic expression that influences the recipient.

Keywords:
Rhetoric;
Argumentation;
Poetic Discourse;
Imagination;
Circulation.

* Corresponding author, e-mail: mebarekhaddads@yahoo.com

Doi:

© Constantine 1 University, Algeria, 2026.
E-ISSN : 2588-2007 ---Journal homepage : *http://revue.umc.edu.dz/index.php/h*

مقدّمة

التبليغ كما قلنا يستهدف المتلقي بالتأثير فيه عن طريق جماليات اللغة الشعرية، ولعل أبرز جماليات هذه اللغة الثانية التي لابد أن يستعين بها الشاعر لإحداث التأثير المنشود هي بلاغة الحجاج باعتباره استراتجية خطابية فعالة في تحقيق بلاغة الخطاب الشعري على مستوى التعبير والتبليغ معا، وسواء تم هذا الأمر على نحو تخييلي باستخدام أدوات التعبير الشعري المؤثر في المخيّلة (الإمتاع)، أو على نحو تداولي باستخدام أساليب الإقناع العقلي، ولا يخفى أن جزءا كبيرا من عوامل الإمتاع والإقناع في الخطاب الشعري يقوم على بلاغة الحجاج ضمن بنية نصيّة تخييلية متماسكة.

نحاول أن نقارب المحاور الأساسية لهذه القضية بتأسيس نظري لها واف مسنود بمقتطفات نصيّة مختارة ومناسبة.

1- بلاغة الحجاج

ممّا لا مراء فيه أن البلاغة العربية يطغى عليها منذ بواكير نشأتها الأولى بشكل واضح الاشتغال بتقنيات تحسين العبارة وتصوير القول وتزيينه، فالبلاغة كما يقول حمّادي صمود " ظهرت تباشيرها في أحضان الشعر والشعر وقعه من إيقاعه وفضله من هيئة القول فيه، ولم يكن يُفوّق شاعر على شاعر إلا بما يقع له من نهج في تصوير المعاني وإخراجها رائقة عذبة تسرّ الناظر وتخلب لبّ المستمع. ولم يغيّر القرآن من الأمر شيئا"1، بالرغم من أن المؤسس الأول للبلاغة وهو الجاحظ كان قد نحا بها من البداية منحى خطابيا يقوم على التأثير والإقناع، إذ هي عنده " البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة"2. لكن سرعان ما عادت البلاغة بعده إلى الاهتمام من الخطاب بمظهره اللغوي وبما قد يشتمل عليه من محسّنات وطرق في إجراء القول خاصة، لينحصر بذلك مناط القيمة الأدبية في التصوير والصياغة والنسج.3

ويمكن تلمّس هذه الظاهرة نفسها في البلاغة الغربية المتأخرة المسمّاة بالبلاغة الحديثة التي يغلب عليها أيضا الاهتمام بجمالية الأسلوب وفنيّته، وقد استمرّ تأثيرها مع الشكلانيات والشعريات حتى تحوّلت في نظر جيرار جنيت إلى " نظرية للأسلوب ثم إلى نظرية للمجازات"4.

نتيجة للعودة إلى البلاغة الأرسطية والاعتماد على أهم أسسها المعرفية والفلسفية ظهر ما يُسمى بالبلاغة الجديدة وهي **الحجاج**، ويعتبر كتاب " مُصنّف في الحجاج- الخطابة الجديدة" لمؤلفيه برلمان وتيتيكا الذي ظهر عام 1958 باكورة التأسيس الفعلي لهذه البلاغة. وأبرز قضية اشتغل بها المؤلفان في هذا الكتاب تخليص الحجاج الذي يقترن عندهما بالخطابة من المغالطة والإيهام والدعاية المغرضة و" صرامة الاستدلال الذي يجعل المخاطَب به في وضع ضرورة وخضوع واستلاب، فالحجاج عندهما حريّة ومعقولية، وهو حوار من أجل حصول الوفاق بين الأطراف المتحاورة"5، أو من أجل الوصول إلى الاقتناع دون حمل على الإقناع.

إذا كان الاستدلال ينبني على الإجماع والاشتراك والتعالي واكتمال المعنى فإن الحجاج يقوم على الحوار والاختياروالتعدّد والاختلاف والخصوصية والنسبية والذاتيةوالارتباط بالمقام.

فالحجاج أقرب إلى الخطابة، في حين أن الاستدلال مجاله المنطق6 القائم على مقدّمات تفضي بالضرورة إلى نتائجها المعلومة . ومن هنا نجد بيرلمان وتتيكا في كتابهما يحصران موضوع الحجاج في " درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"7، ويجعلان الغاية من الحجاج " أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد من درجة ذلك الإذعان، فأنجع الحجاج ما وُفّق في جعل حدّة الإذعان تقوى حدّتها لدى السامعين"8.

ولعل من أهم تقنيات الخطاب التي نراها ذات أثر حجاجي كبير في المتلقي الاهتمام بالإشارة إلى الدقائق والرقائق المتعلقة بالموضوع تكثيفا لحالة حضوره في ذهن المتلقي وانفعاله به ، والمثال على ذلك ما قاله واتولاي صاحب كتاب (مبادئ في الخطابة) من أن الجمهور الذي ظل ينصت ببرود تام إلى ما كان يعرض عليه من قضايا متعلقة حول مجزرة فونتونوا هزّته هزا عنيفا إلى حدّ إذراف الدموع جزئية بسيطة تحكي مصرع شابين في هذه المجزرة.

من هذه التقنيات أيضا التي من شأنها إحداث الانفعال استخدام اللفظ الحسي المجسد دون اللفظ المجرّد، كقول أنتوان في مسرحية يوليوس قيصر لشكسبير عن مدبري قتل القيصر " أولئك الذين اخترقت خناجرهم جسد القيصر" عوض أن يقول " أولئك الذين قتلوه"، استخدام الصور البلاغية باعتبارها ذات قيمة حجاجية مثل الكناية والمجاز.

كذلك من هذه التقنيات الأشكال الحجاجية القائمة على الوصل مثل الحجج شبه المنطقية، والحجج المؤسسة على بنية الواقع، والحجج المؤسسة لبنية الواقع، وحجج التمثيل، والأشكال الإنفصالية القائمة على الفصل بين المفاهيم مثل زوج الظاهر/ الواقع أو الحقيقة9.

فالحجاج عموما يمكن تعريفه بأنه نزوع قصدي نحو إحداث لون من التأثير لدى المتلقي بتغيير موقفه أو تعديله أو تثبيته، ويحق للمتلقي فيه أن يعترض وألاّ يذعن للأطروحة المعروضة عليه، مما قد يرفع من وتيرة المحاجّة ويزيد من الرغبة في استخدام أساليب الإقناع واستراتجياته وتقنياته بصورة أوسع وأحكم وأوثق أثناءعملية التلفظ وإنتاج الكلام .

ينغرس الحجاج في تراكيب اللغة باعتبارها " تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية "10، وبالنظر كذلك إلى ما تقدمه من طاقات تعبيرية حجاجية هائلة تضمن تفعيل استراتجيات الحجاج المرسومة وتحقيق مقاصده المنشودة، فهذه الاستراتجيات ليس من سبيل سالكة أمامها إلى عقول ونفوس المخاطبين إلا أن تتحوّل إلى مبان لغوية حجاجية واضحة يتلفظ بها المتكلم في مواجهة المخاطَب لإقناعه أو استمالته.

ومن هنا اتّخذ الحجاج له عند كل من انسكومبر وديكرو لبوسا لغويا صرفا في كتابهما المشترك (الحجاج في اللغة)، "فالحجاج عندهما كامن من حيث بنيته في اللغة ذاتها كما يدل على ذلك عنوان كتابهما، لا فيما يمكن أن ينطوي عليه الخطاب من بنى شكلية أو شبه منطقية أو رياضية كما هو الشأن عند برلمان وتيتيكا"11

فالحجاج إنما يؤدي وظيفته من منظور اللغة كما يقرران باعتباره إنجازا لمتواليات من الأقوال بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها داخل الخطاب، حيث إن كون اللغة لها وظيفة حجاجية يعني أن التسلسلات الخطابية محددة لا بواسطة الوقائع المعبر عنها داخل الأقوال فقط، ولكنها محددة أيضا وأساسا بواسطة بنية هذه الأقوال نفسها وبواسطة المواد اللغوية التي تم توظيفها وتشغيلها. ومن هنا وجب التمييز بين الاستدلال والحجاج لأنهما ينتميان إلى نظامين مختلفين، نظام المنطق ونظام الحجاج، فالأقوال التي يتكون منها استدلال ما مستقلة بعضها من بعض، بحيث إن كل قول منها يعبر عن قضية ما، ولهذا فإن تسلسل الأقوال في الاستدلال ليس مؤسسا على الأقوال نفسها ولكنه مؤسس على القضايا المتضمنة فيها، أما الحجاج فهو مؤسس على بنية الأقوال اللغوية، وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب.

ويمكن التمثيل لكل من الاستدلال والحجاج بالمثالين التاليين:

- كل اللغويين علماء- زيد لغوي- زيد عالم.
- أنا متعب، إذن أنا بحاجة إلى الراحة.

يتعلق الأمر في المثال الأول باستدلال برهاني أو قياس منطقي ، أما إذا نظرنا في المثال الثاني فنجد المتكلم فيه يقدم عنصرا دلاليا (التعب) باعتباره حجة ودليلا لصالح نتيجة مقصودة تمثل عنصرا دلاليا آخر هي حاجته إلى الراحة، والحجة قد تكون ظاهرة أو مضمرة بحسب السياق، والأمر نفسه بالنسبة للنتيجة والرابط الحجاجي بينهما12.

وعلى ذلك فإن التحليل الحجاجي للنص من هذا المنظور اللغوي يتوسل بمجموعة من الأدوات منها: السلم الحجاجي، العلاقات الحجاجية، الروابط الحجاجية، الاستعارة الحجاجية، أفعال الكلام.

نحاول أن نستأنس بهذين النموذجين المتقدمين للمقاربة الحجاجية فيما سنورده حول تمظهرات وملامح البنية الحجاجية في الخطاب الشعري، حيث يقارب أحدهما مسألة الحجاج برؤية بلاغية ويمثل هذا النموذج (بارلمان وتيتيكا) في حين يقاربها النموذج الآخر من زاوية لسانية تستند إلى نهج ما يعرف بالتداوليات المدمجة كما هو الأمر عند(ديكرو وانسكومبر).

تتشكل بنية الحجاج في الخطاب الشعري في إطار نمطين من الأبنية اللغوية والأساليب والصور الحجاجية هما نمط التخييل ونمط التداول علما أنّ التخييل عادة ما يكون المقصود به الجانب الأسلوبي الصياغي الفني المنفصل عن فضاء التداول وسيرورة الحجاج، كما أن الحجاج يُنظر إليه من زاوية تداولية صرف ليس لها ارتباط وظيفي بالجانب الفني التخييلي. أما نحن هنا فقد خالفنا نوعا ما المعهود في هذه القسمة ، حيث نجدنا ندرج التخييل ضمن أنساق الحجاج وصوره المؤثرة في المتلقي إقناعا أو اقتناعا، ونقصد بالتخييل هنا بلاغة الصورة أو المجاز. ونجعل للتداول مساحة مخصوصة تتحرك فيها الفاعلية الحجاجية باستخدام استراتجيات حجاجية وأدوات بلاغية ترتبط إجرائيا ووظيفيا بالمنحى التداولي أكثر من ارتباطها بالمنحى التخييلي.

2. بنية الحجاج التخييلي

ينبني الحجاج التخييلي على بلاغة الصورة وما تخلفه في وعي المتلقي ومخيلته من آثار تهتز لها مداركه وتطرب وينقاد تحت وقعها إلى الاستمتاع والاقتناع معا بوجاهة وجدوى المعاني التي تعبر عنها رسما وإيحاء وتهويما مستلذا ومن هنا فلا يمكن إنكار أهمية الصورة ودورها في فعل الحجاج بسبب ارتباطها بمقاصد المتكلم وأهدافه الحجاجية.

والصورة كما يعرفها عبد الله صولة هي " تعبير استبدالي يقوم فيه الشيئ المشاهد أو الملموس أي الصورة بديلا عن الفكرة أو المعنى أو المفهوم سواء جاء هذا التعبير بالصورة للكشف عن كوامن نفس المتكلم أو لمجرد الإمتاع أو للتأثير والمحاجة والإقناع"13. مثل التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية وقد تتعدى ذلك إلى كل أساليب التصوير والتشخيص والوصف، لكن الاستبدال الذي يتم على مستوى تركيب الصورة حيث يكون المعنى الحقيقي فيها ظاهرا والمعنى المجازي موحى به ملموحا لا يلغي عنصر التفاعل بين المعنيين، وهذا يعطي الصورة بعدها الحجاجي والجمالي في آن واحد، وقد تأدّى هذا الأمر ببعضهم إلى القول بأن " منشأ الاستعارة التفاعل بين عنصرين لغويين متجاورين، وليس الاستبدال فهي عدول نسقي لا جدولي"14.

فالصورة في الكلام تنشّط المخيلة وتستفز الحسّ وتقود إلى التفاعل مع ظلال المعاني ورسومها وتشخيصاتها التي ترشح منها في الوعي وجعل حضورها في الذهن أقوى وأثرها فيه أشدّ وأعمق، فالصورة " تتدخل في الحجاج إما باعتبارها كليشيهات يكون لها بفضل شيوعها أثر نفسي مهم، وإما باعتبار أنها هي ما يحدث قطيعة واضطرابا ومفاجأة، مما يسمح لها بالقدرة على التأثير والإقناع"15.ومن ثم نجدها تجمع بين الوظيفة الجمالية الإمتاعية وبين الوظيفة الحجاجية الإقناعية من حيث هي تأثير في الوجدان وإقناع للنفس.

1-2. حجاجية الصورة البيانية

لا تقتصر أهمية الصورة البيانية على مجرد التخييل أي إثارة مخيلة المتلقي ووجهها الإبداعي الخارق للمعتاد المتوقع " بل إن جوهرها استدلالي مادام مرجعه (اعتبار الملازمات بين المعاني) وهكذا فالتصوير عملية استدلالية تقوم على الانتقال من المعنى إلى معنى المعنى، أو من الدلالة الوضعية إلى دلالة عقلية أخرى، الأولى دلالة مطابقة والثانية دلالة مستلزمة"16.وإن كانت الملازمة بين المعاني لا تجري على قياس منطقي بل تتم على أساس علاقة اللفظ بالمعنى في مقام معين.

فالتمثيل صورة تعوّض مفهوما أو معنى حقيقيا، على أن من القدماء من يلحق به المثل وإن خلا من التشبيه والمجاز، وهو أعم من التمثيل بمعناه البلاغي الضيق، إذ ليس التمثيل إلا نوعا من أنواعه، يظهر من هذا الكلام أن التمثيل فعل استدلالي يُستدل معه على معنى المعنى بالمعنى مما يعد دليلا على قوة الادعاء والإثبات في هذا الأخير.

يكسب التمثيل الكلام قوة حجاجية تجعله مؤثرا ومكثفا للمعنى في ذهن المتلقي لأنه تجسيد للمعنى في صورة محسوسة تدركها النفس بسهولة وتذعن للدعوى المتضمنة فيها. وهذا ما يشير إليه الجرجاني في قوله " أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة وكسبها منقبة ورفع من أقدارها وشبّ من نارها وضاعف من قواها في تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها...وإن كان حجاجا كان برهانه أنور وسلطانه وبيانه أبهر"17.

وتظهر قيمة التمثيل الحجاجية أكثر حين ننظر إليه على أنه تماثل قائم بين البنى، وصيغة هذا التماثل العامة هي أن العنصر أ يمثل إلى العنصر ب ما يمثله العنصر ج بالنسبة إلى العنصر د وهو ما يوضحه قول بعضهم من أن " ما يؤسس أصالة التمثيل وما يميّزه من التماثل الجزئي... أنه ليس علاقة مشابهة، وإنما هو تشابه علاقة18.

كما في قول المتنبي: فإن تفق الآنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

حيث نجد:

أ- تفوق المتنبي.

ب- كونه من الآنام.

ج- المسك

د- بعض دم الغزال

العلاقة بين هذه العناصر ليست علاقة مشابهة، وإنما هي تشابه علاقة.

ويعلّق الجرجاني على هذا البيت قائلا: " ذلك أنه أراد أنه فاق الآنام وفاتهم إلى حد بطل معه أن يكون بينهم وبينه مشابهة ومقاربة، بل صار كأنه أصل بنفسه..وهذا أمر غريب..وبالمدعي حاجة إلى أن يصحح دعواه في جواز وجوده على الجملة، فإذا قال إن المسك بعض دم الغزال فقد احتج لدعواه"19.

أما الاستعارة فتعد من أهم الوسائل اللغوية الحجاجية في الخطاب عموما والبناء الشعري بوجه خاص إذ يستخدمها المتكلم لتصوير المعنى وتحقيق مقاصده وذلك بفضل الطاقة الحجاجية التي تختزنها مقرونة بالشحنة التخييلية التي تسري في تركيبتها مما يجعل منها بؤرة دلالية لتداخل الحجاج والتخييل، فهي قائمة على التردد بين " التحقيق والتخييل، كما لو كانت الجملة الاستعارية تجمع بين عالمين: عالم واقعي وعالم ممكن، أما العالم الواقعي فيكون فيه المستعار له هو المستعار منه بعينه، أما العالم الممكن فيكون مفارقا له وإن اشترك معه في بعض الصفات"20.

وتقوم الاستعارة على استعمال اللفظ في غير ما وضع له أصلا، وبذلك يصبح هذا اللفظ دالا على معان أخرى غير المعاني الظاهرة الحقيقية التي تُؤخذ على أنها دليل الادعاء والإثبات للمعاني الثواني المقصودة ويشرح عبد القادر الجرجاني ذلك بقوله " إنك إذا قلت رأيت أسدا كنت قد تلطّفت لما أردت إثباته له من فرط الشجاعة حتّى جعلتها كالشيئ الذي يجب له الثبوت والحصول، وكالأمر الذي نصب له دليل قاطع بوجوده، وذلك أنه إذا كان أسدا فواجب أن تكون له تلك الشجاعة العظيمة وكالمستحيل والممتنع أن يعرى عنها"21.

ومما يزيد من القوة الحجاجية للاستعارة أنها" قول حجاجي، وحجاجيته من الصنف التفاعلي " 22 المرتبط بالسياق المحيط به، حيث لا بد أن تجري محاورة حجاجية مبنية على الادعاء والاعتراض بين القول الاستعاري الذي فيه ادّعاء بوجود المعنى الحقيقي للجملة أي ادعاء المطابقة بين المستعار له والمستعار منه وبين المتلقي الذي يعترض على دعوى وجود معنى حقيقي للجملة، ومن ثمّ إنكار وجود مطابقة بين المستعار له والمستعار منه23.

ومصدر القوة الحجاجية لهذه المحاجّة هو ارتباطها بالمقام ومقاصد المتكلم، أما الاستعارة غير الحجاجية فتكون غير مرتبطة بسياقات التخاطب والتواصل الحجاجي، وعادة ما تكون مأسورة في نسق البديع والزخرف اللفظي المراد به إظهار البراعة اللغوية لا غير.

ولا يكون الحجاج في التشبيه والكناية إلا بالادعاء ثبوتا أو نفيا إذ هما كما يقول السكاكي " إلزام شيئ يستلزم شيئا فيتوصل بذلك إلى الإثبات أو يعاند فيتوصل بذلك إلى النفي، فوحقك إذا شبهت قائلا (وجهها وردة) تصنع شيئا سوى أن تلزم الخد ما تعرفه يستلزم الحمرة الصافية، فيتوصل بذلك إلى وصف الخد بها. أو هل إذا كنيت قائلا (فلان جمّ الرماد) تثبت شيئا غير أن تثبت لفلان كثرة الرماد المستتبعة للقرى وتوصّلا بذلك إلى اتصاف فلان بالمضيافية عند سامعك"24.

3. بنية الحجاج التداولي

ينبني الحجاج التداولي الذي ننحو به هنا منحى مجردا من التخييل قائما على أدوات تحقيق التماسك النصّي في الخطاب وإن كان هذا ليس معناه أن التخييل يمكن أن يقوم بذاته في الخطاب مستقلا عن هذه الأدوات فلابد أن يتداخل ويتجادل معها كما سنبين ذلك بتفصيل في مبحث لاحق، ينبني إذن هذا النمط من الحجاج على مجموعة من الأدوات والبنيات الحجاجية سنجتزئ بذكر أهمها وأكثرها إجرائية:

3-1. الروابط الحجاجية

هي أدوات لغوية اتّساقية تؤدي وظيفة الربط بين أجزاء الكلام " أو بين حجتين على الأصح أو أكثر، وتسند لكل قول دورا محددا داخل الاستراتجية الحجاجية العامة، ويمكن التمثيل للروابط بالأدوات التالية (بل ، لكن، حتى، لاسيما، إذن، لأن، بما أن، إذ...)"25.

3-3. العلاقات الحجاجية

هي نتاج الربط بين أجزاء الكلام بواسطة الروابط الحجاجية " تعكس استراتجية معينة في الإقناع اختارها الباث دون سواها لأنه يراها كفيلة بتحقيق الخطاب قادرة على تبليغ مقاصد صاحبه"26، وهي علاقة التتابع، علاقة السببية، علاقة الاقتضاء، علاقة الاستنتاج، علاقة عدم الاتفاق أو التناقض.

3-3. الأفعال اللغوية

نظرا لأن وظيفة اللغة لا تقتصر على الإخبار بل " إننا نستعمل اللغة لإنجاز أفعال عديدة، ولتغيير الواقع أو تغيير علاقتنا به وللتأثير في الغير والأشياء، ومن هنا سلطتها وسلطانها وقوة كلماتها"27. فإن الأفعال الكلامية تختزن قوة إنجازية وتأثيرية في المتلقي نتيجة لمحاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل ما، أو حمله على الاستجابة لأثر هذا الفعل ومن هذا الصنف الأفعال الإنشائية كالأمر، والنهي، والإستفهام..من هنا تأتي قوتها الحجاجية والإنجازية.

3-4. التكرار

للتكرار بعد حجاجي باعتباره آلية حجاجية يستعين بها المتكلم على إثبات دعواه وباعتباره أيضا يعكس تمسكه بدعواه وإصراره على إقناع المخاطب بها.

3-5.الحوار الحجاجي

يقوم الحوار الحجاجي على مبدأ التعاون بين طرفيه والتزامهم بشروطه وقواعده التنظيمية الضابطة لمساره، والغرض منه هو دفع الاعتراضات التي يبديها أحد الطرفين على دعوى الطرف الآخر بالاعتماد على حجج وأدلة مقنعة وبأسلوب هادئ يعرى عن الانفعالية ومحاكمة النوايا.

4. بلاغة الحجاج في الخطاب الشعري

ينبني الشعر أساسا على التخييل والبعد عن الفكر والوضوح والإقناع وتصريف القول على غير الوجه المألوف " فمسلك الشعر غير مسلك العقل لا يخاطب في المتلقي غير عاطفته ولا يحرك فيه غير أحاسيسه"28. وقد عرّف ابن سينا الشعر قديما بقوله" إن الشعر هو كلام مخيّل مؤلف من أقوال موزونة متساوية وعند العرب مقفّاة والمخيّل هو الكلام الذي تذعن له النفس فتنبسط عن أمور وتنقبض عن غير رويّة وفكر واختيار وبالجملة تنفعل له انفعالا نفسانيا غير فكريّ سواء كان المفعول مصدّقا به أو غير مصدّق"29.

لذلك رفض القدامى أن يدخل الحجاج في البناء الشعري لأنه يسلب الشعر شعريته وينزع به نحو الخطابية، فكيف لنا أن ندّعي أن الشعر قد يقوم على الحجاج وينسلك في مسالكه بعد هذا؟.

من الواضح أن الإجابة عن هذا السؤال تكون نفيا وثبوتا بحيث يمكن القول إن الشعر ينفر من الحجاج إذا نحن ضيقنا من مفهوم الحجاج وحصرناه في مجرد الاستدلال العقلي وطرائقه الصارمة أما والحجاج أعم من ذلك وأوسع مجالا باعتباره خصيصة لغوية كامنة في نسيج النص وهذا المفهوم كما سبق أن أشرنا " إنما يتنزّل في نظرية عامة هي نظرية الحجاج في اللغة التي تتعارض مع كثير من النظريات والتصورات الحجاجية الكلاسيكية.. (ومن أهم مبادئها): - الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج – المكوّن الإخباري في المعنى ثانوي والمكوّن الحجاجي أساسي – عدم الفصل بين الدلاليات والتداوليات والدعوة إلى فرضية التداوليات المندمجة"30. فإن هذا يؤكد حضور الحجاج في الشعر ولا ينفيه عنه لأن النصوص الشعرية نصوص لغوية أساسا.

فالخطاب الشعري وإن كان قولا مخيّلا مبنيا على اللغة الشاعرة والعدول عن السمت المألوف فلا يمكن أن يخلو من حجاجية اللغة والقصد إلى الإقناع والانسجام والترابط في الأفكار. ومن ناحية أخرى إذا كان الشعر من سماته الجوهرية الغموض فإن " الحجاج يجد في الغموض أرضية خصبة لأن الحقيقة عندها لن تكون واحدة أو لا يمكن الحسم بشأنها فيكون الالتجاء إلى التأثير والإقناع وتبرير المواقف"31 بمنأى عن الإبهام وضروب التهويم والهذيان. ويكون للحجاج بذلك دور أساسي في تنزيل الخطاب الشعري منزلة وسطى بين الكلام العادي والانخراط في ضروب الهذيان مما يجعله رافدا للتخييل فإذا كان التخييل ينزع بالخطاب نحو الغرابة وربما الإبهام فإن الومضات الحجاجية المتواترة في الخطاب تأتي لتخترق كثافة الغموض وتكشف عن ملامح الرؤية، فالخطاب الشعري وإن خيّل وأوهم فهو" ينشد الفعل في المتلقي ويروم التأثير فيه وتوجيه أفكاره وسلوكه الوجهة التي يريد فينغرس بداهة في الحجاج إذ الفعل والتأثير والتغيير والتوجيه كلها من جوهر الحجاج"32. كما رأينا سابقا.

ومن ثم فإن دراسة الحجاج في الخطاب الشعري لا تكون بالنظر إليه على أنه متوالية من الحجج المستقلة عما جاورها وأحاط بها بل بالنظر إليه على أنه بنية كلية قائمة على الترابط والانسجام الحجاجي الذي يكشف عن منطق النص ويوحّد أجزاءه ولو بدا خفيا يصعب على القارئ غير المتمرس الذي يفتقر إل موسوعة معرفية حول الحجاج وأساليبه وبنياته الكشف عنه، بالإضافة إلى أن الخطاب الشعري الحجاجي يبدو شبكة معقدة منها ما يعود إلى اللغة الشعرية ذات الطبيعة التخييلية، ومنها ما يعود إلى المقام الشعري التداولي وما يحكمه من ظروف وملابسات.

سنحاول أن نستند إلى هذه الرؤية الشمولية المؤطرة للخطاب الشعري الحجاجي في النظر في أحد النصوص للكشف عن الخيط الحجاجي الناظم لها تمثيلا لا تحليلا.هذا النص هو مقطوعة من قصيدة أمل دنقل "لا تصالح"33 التي كتبها في السبعينات متأثرا بأجواء وملابسات زيارة السادات إل القدس.

يميل الخطاب الشعري في هذه المقطوعة بشكل واضح إلى اتخاذ الحجاج وسيلة للإقناع والتأثير،فهو يبدو من البداية متعاونا مع القارئ منشئا حوارا افتراضيا بينهما مبتعدا بذلك عن الإغراق في الغنائية والذاتية مشركا الآخر في الرؤية وتقرير المصير.

يعبر الشاعر من البداية صراحة عن هذه الرؤية التي تسكن وجدانه وتملك عليه أقطار نفسه ويقتنع بجدواها حاضرا ومستقبلا حين يفتتح الخطاب بصيغة النهي الذي يتحول لشدة تكراره وقوة الإلحاح عليه إلى نهي ملزم سواء مع العنوان "لا تصالح" أو في السطر الأول أوفي السطر الخامس والعشرين وفي السطرين السابع والعشرين والثامن والعشرين مما يجعل النهي عن المصالحة أمرا واجبا لا يقبل المهادنة لأنه متولد من رؤيا الشاعر الاستشرافية الجازمة بعدم جدوى المصالحة، فمهما يغر العدو بالإقبال على الصلح ويقدم من ثمن في سبيل ذلك فإن التصالح معه يبقى غير ذي جدوى أمام وحشيته وولغه في دماء الأبرياء.

والشاعر بذلك يقيم حواره مع المخاطب على الإقناع إقناع المخاطب برفض المصالحة مع العدو " فيخاطبه من البداية بخطاب شديد في صراحته آمر بما ينبغي تركه: لا تصالح وهو بذلك يولد بذرة الحجاج في نفس القارئ بين الصلح ورفض المصالحة"34. وبعد الاستهلال بالنهي القاطع الحدّي الذي يكشف عن مدى خطورة قضية المصالحة التي يوشك أن يتورط فيها الوجدان العربي يأتي الشاعر بمبررات عدم قبول الصلح للإقناع بعدم جدواه والتخلي عن التفكير فيه.

يورد الشاعر في المقطع الأول حالة حجاجية استدلالية إقناعية مؤسسة على واقع يقول:

لا تصالح
..ولو منحوك الذهب
أترى حين أفقأ عينيك
ثم أثبّت جوهرتين مكانهما
هل ترى..؟

هذه الحالة الاستدلالية جاء بها الشاعر في سياق مثل مُشخّص لعدم جدوى المصالحة باستخدام أسلوب الاستفهام الإنكاري تاركا للمتلقي الإجابة عن السؤال من خلال إدراكه لطبيعة الأشياء ووعيه بما يترتب عن المصالحة من آثار خطيرة، والإجابة عن السؤال ستكون بالنفي قطعا لأن الجوهرة التي ستثبت مكان العين لن تعقب الرؤية على الإطلاق رغم قيمتها المادية الكبيرة.

ويلجأ الشاعر إلى وسيلة أخرى للتأثير في المخاطب فيعمد إلى تذكيره بأيام الطفولة يقول:

هي أشياء لا تشترى
ذكريات الطفولة بين أخيك وبينك
حسكما فجأة بالرجولة
هذا الحياء الذي يكبت الشوق.. حين تعانقه
الصمت مبتسمين لتأنيب أمّكما
وكأنكما
ما تزالان طفلين

لعل هذا الذي يفكر في الصلح وينجذب إليه تحت إغراءات خادعة ومبررات كاذبة تؤوب به الذاكرة إلى زمن الطفولة الجميل فيستروح منه معاني الصدق والبراءة والبكارة فيحسم أمره ويتخذ قراره بعدم الصلح.

وربما أحس الشاعر أن لا استجابة من المخاطب فيتوسل بكيفية أخرى لإقناعه وهي الاستخفاف بما يعتقده وهما من أن وصايته على الأبناء وكفالته لهم لو انقطعتا دونهم ضاعوا وهلكوا يقول:

إنك إن مت
للبيت رب
وللطفل أب

ويلجأ الشاعر إلى وسيلة أخرى أشد إقناعا وتأثيرا في المخاطب لأنها تخاطب فيه حسه وعقله معا وتستنهضه للصمود والمقاومة ورفض المصالحة وعدم نسيان جرائم العدو ووحشيته يقول:

هل يصير دمي –بين عينيك –ماء؟
أتنسى ردائي الملطخ
تلبس فوق دمائي ثيابا مطرزة بالقصب

ثم يختتم الشاعر هذه المقطوعة مؤكدا بلهجة حادة صارمة حالة الحرب لأنها هي السبيل لاسترجاع الحق المغصوب وحفظ كرامة الشهداء ومحو صفحات العار التي كتبت بمداد الخيانة والغدر والاستهانة بقدسية الدم العربي المسفوح ولذلك تجده يلح مرة أخرى على الصمود وعدم المصالحة. يقول:

إنها الحرب
قد تثقل القلب
لكن خلفك عار العرب
لا تصالح
ولاتتوخّ الهرب

الصورة الحجاجية المعروضة في هذه المقطوعة تقوم على آلية السلم الحجاجي حيث تسود علاقة ترتيبية للحجج المعروضة فيها يمكن أن نرمز لها بالشكل التالي:

----- المقطع الأول.
-----المقطع الثاني.
-----المقطع الثالث
-----المقطع الرابع

ن- حالة الحرب والتمسك بعدم المصالحة

كل المقاطع السابقة حجج واستدلالات قائمة على علاقات التتابع تخدم النتيجة وتقود إليها.

يعتمد بناء الأسطر الشعرية في هذه المقطوعة على التتابع والاستمرارية الظاهرة على صعيد الألفاظ والجمل وربطها بالروابط الحجاجية " وهذا ينسجم مع الخطاب العقلي الذي يلتفت إلى التسلسل والمنطق وحسن الترتيب"35. ومن الروابط الحجاجية البارزة التي استعان بها الشاعر على الحجاج لو في (ولو منحوك الذهب) "ودور هذا الرابط إدراج حجة أقوى من الحجة المذكورة قبله والحجتان تخدمان نتيجة واحدة"36. وضمير الشأن في (هي أشياء..) و(إنها الحرب) ودوره اللغوي يتمثل في لفت الانتباه إلى أهمية وخطورة المتحدث عنه.

يبني الشاعر هذه المقطوعة على نسق حواري مترابط متساند يتخذ فيه الاستفهام الإنكاري بقوته الإنجازية المستفزة للإجابة المبتغاة موقعا مركزيا إلى جانب النهي والعديد من الصور الحسية ذات القوة الإقناعية اللافتة توصلا إلى الإقناع بقضية الشاعر النابعة من رؤيته الاستشرافية وحسّه الإنساني الشفيف.

خاتمة

يحسن بنا في الختام أن ننوّه أولا بأهمية الحجاج وضرورة استخدام تقنياته واستراتجياته المتنوعة لبناء خطاب إنساني منتج فعّال يحمل في طيّاته سلامة نهجه وقوّة إقناعه، فلا بديل استراتجيا يغني عن الحجاج في التعامل مع الآخر والإنصات إليه، لاسيما ونحن نعي جيدا أن نظام العلاقات الإنسانية المستقرة إنما يقوم على الحوار والاختيار والتعدّد والاختلاف والخصوصية والنسبية والذاتية والارتباط بالمقامات المختلفة، فإذا لم يجر التخاطب والتواصل على سنن الحجاج وسمته فلابد أن يكون مآل الأمر إل العنف.

بلاغة الحجاج وهي بحق النسخة المطوّرة من البلاغة التقليدية مؤسسة على عدة نماذج نعتقد أن أهم هذه النماذج وأكثرها لصوقا بحجاجية الخطاب نموذجان هما: نموذج (بيرلمان وتيتيكا)ويقارب مسألة الحجاج برؤية بلاغية ونموذج (انسكومبروديكرو)ويقاربها برؤية لسانية.

الخطاب الشعري وإن كان قولا مُخيّلا ينبني على اللغة الشعرية المجازية فلا يمكن مع ذلك أن يخلو من حجاجية اللغة والقصد إلى التأثير والإقناع باعتبار الحجاج منغرسا في اللغة التي تحمل بذاتها وظيفة حجاجية، والخطاب الشعري نص لغوي، كما أن الشعر من سماته الجوهرية الغموض، والغموض مظنة الاختلاف والتعدد والتأويل ومن ثمّ الحجاج.

تتشكل بنية الحجاج في الخطاب الشعري في إطار نمطين من الأبنية اللغوية والأساليب والصور الحجاجية هما نمط التخييل ونمط التداول.

دراسة الحجاج في الخطاب الشعري لا تكون بالنظر إليه على أنه متوالية من الحجج المستقلة عما جاورها وأحاط بها بل بالنظر إليه على أنه بنية كلية قائمة على الترابط والانسجام الحجاجي.

الهوامش والإحالات

[1]. حمّادي صمود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، من كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية م، تونس، كلية الآداب منوبة، ص21.

[2]. نقلا عن حمادي صمّود، ص21.

[3]. حمّادي صمّود، ص33.

[4]. عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013، ص14.

[5]. عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، ط1، تونس، 2011، ص11-12.

[6]. نفسه، ص16.

[7]. نفسه، ص15.

[8]. نفسه، ص15.

[9]. نفسه، انظر من ص42- إلى ص66.

[10]. أبو بكر العزاوي، الحجاج والمعنى الحجاجي، من كتاب التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، تنسيق حمو النقاري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط1، الرباط، 2000، ص55.

[11]. عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، ط2، بيروت، 2007، ص31.

[12]. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، ط1، الدار البيضاء، ط1، 2006، ص17-18.

[13]. 13- عبد الله صولة ، الحجاج في القرآن، ص40.

[14]. نفسه، ص488.
[15]. حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2014، ص260.
[16]. عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص78.
[17]. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، من ص76 إلى ص78.
[18]. عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص57.
[19]. عبد القادر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص88.
[20]. طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي، ط1، المغرب، 1998، ص309.
[21]. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، دار الكتاب العربي، ط3، بيروت، 1999، ص70.
[22]. طه عبد الرحمان، ص310.
[23]. نفسه، 311.
[24]. أبو يعقوب يوسف السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1987، ص319.
[25]. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص27.
[26]. سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2011، ص317.
[27]. أبو بكر العزاوي، 126.
[28]. سامية الدريدي، 49.
[29]. نفسه، ص49.
[30]. نفسه، ص50.
[31]. نفسه، ص63.
[32]. نفسه، ص70.
[33]. أمل دنقل، الأعمال الكاملة، دار الصفوة، بيروت، ص320.
[34]. حنان إسماعيل العمايرة، استراتجيات الخطاب اللغوي في قصيدة لا تصالح، لأمل دنقل، ص275.
[35]. نفسه277.
[36]. أبو بكر العزاوي، ص27.

قائمة المصادر والمراجع

1- حمّادي صمود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، من كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية م، تونس، كلية الآداب منوبة.

2- عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013.

3- عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011.

4- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، ط2، 2007.

5- التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، تنسيق حمو النقاري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط1، 2006.

6- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط1، 2006.

7- حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2014.

8- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

9- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1999
10- طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي المغرب، ط1، 1998.
11- أبو يعقوب يوسف السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987.
12- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2011، ص317.
13- أمل دنقل، الأعمال الكاملة، دار الصفوة، بيروت، 1985.
14- حنان إسماعيل العمايرة، استراتجيات الخطاب اللغوي في قصيدة لا تصالح لأمل دنقل تصالح، لأمل دنقل مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، مج:14، ع1،الأردن ، 2017.